

## الشواهد والكتابة التاريخية

أ.سعودي مراد<sup>1</sup>

<sup>1</sup>المدرسة العليا بوزريعة (الجزائر)، saoudimourad88@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/09/05 تاريخ القبول: 2022/09/06 تاريخ النشر: 2022/09/20

### ملخص:

يقول فيكو " النقوش والأمثال شواهد على تأسيس الأمم"، انطلاقا من هذا القول يمكننا أن نعتبر الشاهدة انحدارا لنا من الأزمنة الماضية فهي قسم من الماضي حاضر بيننا. تقع واقعة فتجسد في شاهدة التي يعثر عليها المؤرخ فيستحضر الواقعة. وهنا نصل إلى المقولة الشهيرة: المؤرخ ينشئ وثائقه. يبدأ باحث اليوم من قضية ثم يتصور وسائل الإثبات وهي شواهد والتي يجدها عادة في أصناف عديدة مثل: أترية، ورق، قبور، كلمات، نقوش، ألوان، خطوط، صور...فمجموع أحوال الماضي محفوظة في وعي غير بشري لكن في متناول البشر عن طريق الكشف المباشر والاطلاع عليها. يحولها المؤرخ إلى أصول و إلى شاهدة حية هو مكتشفها. لكن هل تسير فيما بعد فكر المؤرخ؟ وإذا كانت إشكالية بحث ما تستدعي استحضار صنف من الشواهد، هل هذا الصنف يحصر الإطار المعرفي للاستنتاجات في رؤيتنا للحادثة التاريخية؟. وبهذا نستطيع الوقوف على قيمتها في الكتابة التاريخية وإيضاح دور المؤرخ في قراءتها.

كلمات مفتاحية: الشواهد، الكتابة التاريخية، المؤرخ، الوثائق، الآثار.

### Abstract:

Vico dit: "Les inscriptions et les proverbes sont la preuve de la fondation des nations." Sur la base de ce dicton, nous pouvons considérer le témoin comme une descente des temps passés, car il fait partie du passé présent parmi nous. Un incident se produit, et il s'incarne dans un témoin que l'historien trouve, et

il évoque l'incident. Nous arrivons ici au célèbre dicton : L'historien crée ses documents. Le chercheur d'aujourd'hui part d'un cas et imagine ensuite les moyens de preuve, qui sont des preuves, qu'il trouve généralement dans de nombreux types, tels que : sol, papier, tombes, mots, inscriptions, couleurs, lignes, images... La somme de les conditions du passé sont préservées dans une conscience non humaine, mais à la portée des humains grâce à la détection et à l'accès directs. L'historien en fait un atout et un témoin vivant qu'il découvre. Mais suivez-vous la pensée de l'historien ? Et si le problème de la recherche nécessite d'invoquer un type de preuve, ce type limite-t-il le cadre cognitif des conclusions dans notre vision de l'incident historique ? De cette façon, nous pouvons déterminer sa valeur dans l'écriture historique et clarifier le rôle de l'historien dans sa lecture.

**Mots-clés:** Témoignage, écriture historique, historien, documents, antiquités.

---

\*المؤلف المرسل: أ. سعودي مراد.

## 1. مقدمة

لقد تطلع الإنسان دائما إلى معرفة ما حدث في الماضي، وقد ارتبط هذا التطلع ليس إلى الحدث وحسب، بل تعداه إلى التساؤل عن سبب حدوثه، والطريقة التي حدث بها، ثم تزايد الاهتمام مع مرور الزمن إلى محاولة تفسير الأحداث التاريخية ومحاولة ربطها بالأسباب والعلل المؤدية لوقوعها. وقد توسع تفسير التاريخ، واتسعت آفاقه بتوسع المعارف وتنوع الوثائق وتقدم طرائق البحث والتنقيب، كما تنوع المفسرون للتاريخ باختلاف ثقافتهم وأفكارهم وأزمنتهم، فانعكس ذلك على طبيعة التفسيرات وأنواعها.

وإذا كان التفسير التاريخي يعود إلى الأزمنة الماضية القديمة، فإن التفسيرات الكبرى للتاريخ قد بدأت في الظهور مع القرن السابع عشر، وتوسعت

## الشواهد والكتابة التاريخية

خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وبرزت بوضوح أكثر خلال القرن العشرين، حيث تطور علم التاريخ موضوعاً ومنهجاً، واتسعت مجالاته، فظهر الاهتمام بالتاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الذهنيات وامتد ليشمل تاريخ الحضارات.

يقول فيكو " النقوش و الأمثال شواهد على تأسيس الأمم"، انطلاقاً من هذا القول يمكننا أن نعتبر الشاهدة انحداراً لنا من الأزمنة الماضية فهي قسم من الماضي حاضر بيننا. تقع واقعة فتتجسد في شاهدة التي يعثر عليها المؤرخ فيستحضر الواقعة. وهنا نصل إلى المقولة الشهيرة: المؤرخ ينشئ وثائقه. يبدأ باحث اليوم من قضية ثم يتصور وسائل الإثبات وهي شواهد والتي يجدها عادة في أصناف عديدة مثل: أترية، ورق، قبور، كلمات، نقوش، ألوان، خطوط، صور... فمجموع أحوال الماضي محفوظة في وعي غير بشري لكن في متناول البشر عن طريق الكشف المباشر والاطلاع عليها. يحولها المؤرخ إلى أصول و إلى شاهدة حية هو مكتشفها. لكن هل تساير فيما بعد فكر المؤرخ؟ وإذا كانت إشكالية بحث ما تستدعي استحضار صنف من الشواهد، هل هذا الصنف يحصر الإطار المعرفي للاستنتاجات في رؤيتنا للحادثة التاريخية؟. بإجابتنا على هذه التساؤلات نستطيع الوقوف على قيمتها في الكتابة التاريخية وإيضاح دور المؤرخ في قراءتها.

## 2. التاريخ والشواهد:

يقف المؤرخ متسائلاً بين الشاهدة والواقعة: من أين يستوحي تساؤلاته؟. يبحث المؤرخ هنا عن شواهد فيجدها عند الخبراء (أصحاب العلوم المساعدة) و لا يتناولها المؤرخ إلا بعد أن يقوم الخبير بتهيئتها وهنا تكون الأشياء قابلة لأن تكون شاهدة، وحينها يستطيع المؤرخ الشروع في عمله الذي هو في جوهره مقايضة، مماثلة مفارقة، فصل وربط، مقارنة ومباعدة<sup>1</sup>. هذا ما أشار إليه عبد الرحمن

---

1- عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، ط1، المركز الثقافي للكتاب، المغرب، 2017م، ص98.

بن خلدون في المقدمة: «..الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم و الحيد عن جادة الصدق <sup>2</sup>». وهنا يشير بن خلدون إلى الأهمية الكبيرة للشواهد التاريخية إذ لا يمكن نقل التاريخ دون الاعتماد على دلائل الأشياء التي تخلفها الوقائع.

يرى المؤرخ الفرنسي "جاك لوغوف J.le Goff" أن الأصل الإغريقي لكلمة Histoire هو Istor ويعني "الشاهد" بمعنى المبصر Istorien وهو أيضا الباحث عن المعرفة Istorie. كما يرى أن معنى التاريخ في اللغات اللاتينية له ثلاثة أوجه: أولا معنى التحقيق والبحث في الأعمال التي ينجزها البشر، وثانيا معنى غرض البحث وهو ما قام به البشر وهذا يكون التاريخ متابعة للأحداث. أما الوجه الثالث فالتاريخ قد يكون هو السرد نفسه <sup>3</sup>.

يُصنع التاريخ من الوثائق و الوثائق هي الآثار <sup>4</sup> التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم، وكل فكرة أو فعل لا يخلف أثرا مباشرا أو غير مباشر طمست معالمه وفقدت وثائقه وصار تاريخ عصره مجهولا إلى الأبد. لمعالجة أي نقطة تاريخية وجب البحث عن شواهدهما وجمعها وهذا من صلب مهمة المؤرخ، هذا ما يطلق

---

2-عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة بن خلدون، تح: أحمد جاد، ط1، دار الغد الجديد، القاهرة، 2007م، ص21.

3-وجيه كوثراني: تاريخ التأريخ ( اتجاهات - مدارس - مناهج)، ط2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013م، ص28.

4- يقصد بكلمة آثار زمنيا عصور ما قبل التاريخ أما الحد الأعلى فصعب التقدير، لأنه مرتبط بالأنشطة البشرية فكلما زاد عمر البشرية كلما اتسعت حدوده الزمنية. فهناك من يرى أن القرون الوسطى مادة أثرية ولا تدخل ضمنها عصر النهضة لأن كلمة علم الآثار ولدت في القرن السابع عشر. أنظر: كمال حيدر: منهج البحث الأثري والتاريخي، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995م، ص11-12.

عليه في ألمانيا "الهوروسطيقا أو اليوروستيك Heuristik"<sup>5</sup>. و المواد التي تملأ  
الأرشفات متباينة بدرجة كبيرة جدا والسيطرة عليها يتطلب تقنيات عالية  
وممارسة حقول معرفية في غاية الدقة لجمع الوثائق الضرورية للبحث، فالمؤرخ  
المحترف هو الذي يضبط في ذهنه هذا السؤال: كيف أستطيع أن أعرف ما  
سأقوله لكم؟<sup>6</sup>.

يرى "هرنشو" أن المؤرخ يعتمد في معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو  
سجلات أو تقاليد، وهي الحقائق المحسوسة الحاضرة التي ينصب عليها عمل  
المؤرخ هي مادة عمله وهي ليست قيمة وهامة لذاتها، ولكن لمجرد دلالتها على  
الوقائع الماضية والتي لا تدل عليها مباشرة إنما بواسطة الضوء الذي يلقيه عليها  
فكر الباحث<sup>7</sup>. وهنا يظهر مدى ارتباط عمل المؤرخ بالشواهد الذي يستخرج  
دلالاتها على الوقائع الماضية.

يعتبر المؤرخ تمثالا ما شاهدا على فترة تاريخية إذا استطاع تفكيك اللغز  
المصور بالشيء المكتوب أو الخبر المروي، وتفتيت جزئياته التي لها دلالات رمزية  
مثل: هلال، صليب، سنبل، قرن، فنظن دائما أن الهلال يشير إلى أصل مشرقى أو  
إسلامي لكن البحث يكشف أمور غريبة مخالفة لتوقعاتنا، وهنا الفرق بين المؤرخ  
والتحاف أو الشاعر والفيلسوف أو الفنان. أما إذا استعصى عليه الأمر فيبقى

---

5- لانجلو أوسينوبوس - بول ماس- امانويل كنت: النقد التاريخي، تر: عبد الرحمن بدوي، ط4، وكالة  
المطبوعات، الكويت، 1981م، ص 5.

6- بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، 2009م،  
260-259.

7- هرنشو: علم التاريخ، تر: عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، مصر،  
1937م، ص12.

التمثال يتيما منغلقا على سره<sup>8</sup>. فالوعي بالتاريخ هو ما يتميز به البشر عن الطبيعة التي لا وعي تاريخي لها<sup>9</sup>.

كان التاريخ في البداية يعتبر فرعاً من فروع الأدب لأنه كان محبوساً في نطاق ما هو مكتوب في مؤلفات المؤرخين على مر العصور أو في السجلات والوثائق التي تم حفظها. غير أن الاكتشافات التي توصل إليها علم الآثار مدت معرفتنا التاريخية بالنشاط الإنساني إلى أزمنة سحيقة لم يكن ممكناً معرفتها بالاعتماد على المصادر المكتوبة لوحدها، فعلم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا أعطونا معلومات عن سائر وجوه حياة الإنسان وبهذا تم التعرف على فترات من التاريخ الإنساني التي لم يكن من الممكن أن تكشفها المصادر الأدبية<sup>10</sup>.

**3. أقسام الشواهد:** يعتبر القرن التاسع عشر هو قرن التاريخ، حيث ظهر شكل جديد من الكتابة التاريخية فرض نفسه وتخلص من تأثيرات الأدب. في هذا القرن بدأ التاريخ يستقل على المستوى الأكاديمي واعتبر مؤرخو المدرسة المنهجية أنفسهم أقرب إلى علماء الطبيعة وأصبح التاريخ يعتمد بشكل أساسي على الوثائق<sup>11</sup>، المؤرخ المحترف تخلص بشكل كامل مما كان يسميه أساتذة التاريخ بجامعة السوربون في القرن 19م أمثال "شارل لانجلوا" و "شارل سينوبوس" بـ «جرائم الأدب التي تلتطخ الخطاب التاريخي العلمي». لقد دافعت المدرسة المنهجية

---

8- عبد الله العروي: المرجع السابق، ص 143-144.

9- الهادي التيمومي: المدارس التاريخية الحديثة، ط 1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2013م، ص 15.

10- قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، ط 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2000م، ص 31-32.

11- إن تصنيف الوقائع التاريخية إلى ظروف مادية وعادات عقلية، مادية، واقتصادية ونظم اجتماعية، لم تشغل اهتمامات مؤرخي المدرسة المنهجية بل ظلت جزءاً من اهتمامات علماء الاجتماع والاقتصاد والسكان والأنثروبولوجيا والاثنولوجيا، هذه الفراغات في البحث التاريخي هي التي مهدت لظهور مدرسة فرنسية جديدة هي مدرسة الحوليات. أنظر: وجيه كوثراني: المرجع السابق، ص 128.

## الشواهد والكتابة التاريخية

عن تاريخ أكثر موضوعية و أقل اصطباغا بالصبغة الأدبية، فتم تقديس الوثيقة وخلالها ظهر الاهتمام بالمحفوظات و الخزانات و دور الأرشييف وفي هذه المرحلة برزت أسماء كبرى في الميدان التاريخي الأكاديمي أمثال: غابرييل مونود - شارل لانغلوا - شارل سينوبوس - كاميل جوليان - ارنست لافيس - فوستيل دي كولانج... وغيرهم<sup>12</sup>. وهنا سيتطور نشاط دور الأرشييف من ناحية التقييم و التصنيف لموضوعات الوثائق التي ستحدد لفئات حسب التخصص والموضوع و حسب القيمة والأهمية.

نقول الشاهد هو من حضر حدوث حادثة ومن يشهد فيما بعد على حدوثها، فنقول هذا شاهد القبر وهو العلامة الدالة عليه، فالشاهد بشري و طبيعي. الشواهد هي كل أنواع مخلفات الماضي مهما كانت أشكالها وموادها و أغراضها. الرسوم شواهد تحمل رموز غير كتابية، والوثائق هي رسوم مكتوبة بكل أنواعها بما فيها الأشرطة والنسائخ المستحدثة<sup>13</sup>. كما أن الوثيقة لا تعني ما هو مكتوب على الورق وحسب، بل هي كل ما دونه الإنسان على أي شيء: على العظم، الطين أو الجلد أو البردي أو الخشب أو الحجر<sup>14</sup>.

إن ترتيب الشواهد يعكس دائما اهتمام كل تخصص، فالتاريخ السياسي يضع على رأس القائمة الشواهد المكتوبة المخطوطة أو المطبوعة، وتاريخ الفن الرسوم والأشكال التمثيلية و تاريخ الإنتاج الجداول الإحصائية و تاريخ الذهنيات<sup>15</sup>

---

12- خالد طحطح: الكتابة التاريخية، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2012م، ص 77-78.

13- عبد الله العروي: المرجع السابق، ص 94.

14- ميمونة مرغني حمزة: دراسات في منهجية البحث التاريخي، ط1، دار الخليج، عمان، 2011م، ص 82.

15- تاريخ الذهنيات ليس تاريخا جديدا فقد ولد غداة الحرب العالمية الأولى مع المؤرخين الفرنسيين لوسيان فافرو مارك بلوخ و البلجيكي هنري بيران وعند بعض الجغرافيين مثل: أ. دومنجون و علماء الاجتماع مثل ل. ليفي برون و هاليواكس وغيرهما. وهذه المجموعة هي التي أوحى منذ 1929م

الأدبيات والأساطير والأحلام. هنا يمكن القول أن أي مجتمع في أي حقبة يخلف نوعين من الشواهد: الأول غير مقصود لأنه طبيعي ملازم للحياة البشرية والثاني مقصود وهو الذي يبحث عنه المؤرخ لإدراك العلاقة القائمة بين كل مجتمع وما يتركه من مخلفات.<sup>16</sup>

يقتضي هذا التوجه بدوره إلى توسيع معنى الوثيقة التاريخية، دون إغفال لأهميتها من جهة اقترانها بعلم تحقيق الوثائق، ولكن دون الاقتصار على استعمال الوثيقة المكتوبة كمصدر وحيد بل تصبح أحد المصادر. إن معنى الوثيقة التاريخية قد توسع لتشمل أشياء كثيرة لا حصر لها كالصورة و الرسم وشواهد القبور والرواية الشفوية-التي تعاني من استبعادها في الكتابة التاريخية- والرموز على اختلافها، وكتب الأدب واللاهوت والفقه وشتى التعابير والطقوس الدينية المكتوبة وغير المكتوبة.<sup>17</sup>

4. قراءة الشواهد التاريخية: لا يكاد يهتم المؤرخ بالفرق بين ضمير المتكلم وبين ضمير الغائب في الوثائق، فكثيرا ما تبدو الوثيقة ذات ضمير الغائب لكن في واقعها وثيقة بضمير المتكلم. كون هذه الوثيقة تمثل تاريخا فهي تخضع لملاحظة مباشرة سواء قام بها المؤرخ نفسه أو استعان بشخص آخر، مهما كانت نظرتة حيادية بعيدة عن التحيز فهي تخضع لحد ما لفلسفاته ورؤيته، ومن هنا فإن الوثيقة تكشف عن شخصية المؤلف المستترة.<sup>18</sup>

---

بحوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الشهيرة. عبر تاريخ الذهنيات عن اهتمام دائم لفهم جيد لمسألة المرور إلى الحداثة وتعتمد على دراسة تطور فكر الجماعات البشرية التي ترسخت في مخيالها مجموعة من الطقوس والعادات لها. أنظر: جاك لوغوف: التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر المنصوري، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007م، ص 279-280 و 293.

16- عبد الله العروي: المرجع السابق، ص 97.

17- وجيه كوثراني: المرجع السابق، ص 396.

18- لويس جوتشلك: كيف نفهم التاريخ (مدخل إلى تطبيق المنهاج التاريخي)، تر: عائدة سليمان عارف - أحمد مصطفى أبو حاكم، دار الكتاب العربي، مصر/ 1966م، ص 74.

## الشواهد والكتابة التاريخية

إن الشهادة مهما تكن لا تعدو أن تكون رواية تقليدية متوارثة في نطاق نسق مسبق، فبالرواية تحدد الشهادة و بالشهادة تتجدد الرواية. والباحث يتوجه دائما في عملياته التفكيرية للموضوع نحو شيء مستقل عن ذهنه وبذلك تكون الموضوعية<sup>19</sup>. إن المؤرخ يقوم بإعادة بناء الحدث من زاويته، فالتاريخ بهذا المعنى هو نتاج عملية بحث وبناء، ودارس التاريخ هو من يصنعه وعليه فإن الحقائق التاريخية لا يمكنها أن تصلنا كاملة ما دام هو رواية للأحداث الماضية، وبما أنه رواية للأحداث فلن يستطيع بعث الحياة بتفصيلاتها جميعا ولذلك نجد اختلاف بين الروايات و الكتب التاريخية من مؤرخ لآخر حول نفس الواقعة التاريخية والتي يعاد اكتشافها باستمرار<sup>20</sup>.

يقول ادوارد كار متحدثا عن البحث التاريخي: «اجمع وقائعك أولا ثم قم بتحليلها، وأقحم نفسك في خطر رمال التأويل و التفسير»<sup>21</sup>. وهذا يدل على أنه لا يمكن بناء تاريخ مطابق لما وقع فعلا في الماضي، وإنما يقوم المؤرخ بإعادة تصوير ووصف الوقائع التاريخية التي حدثت في الماضي حسب ما توفر لديه من شواهد لكن يبقى الوصول إلى سردها كما وقعت فعلا أمر مستحيل لأنه أشبه ما يكون بإعادة مباراة في كرة القدم مرتين بنفس الطريقة والأسلوب.

إن الشهادة نص مغلق وهذا واضح في الكثير من الآثار كالأصنام أو القبور، لكن عندما تكون الشهادة قصيدة فان ناظمها يبدو لنا وكأنه أحد المعاصرين لنا، وهذا خطأ يقع فيه من لا يملك ذهنية تاريخية. النص المكتوب مهما بدا لنا واضحا هو دائما نص مغلق ومثال ذلك نص هيروغليف مصر الذي كتب على حجر الرشيد ظل مغلقا قبل قراءة "شامبليون". عشرات اللغات المنقوشة لازالت

---

19- عبد الله العروي: المرجع السابق، ص 390.

20- خالد طحطح: المرجع السابق، ص 76.

21- ادوارد كار: ما هو التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1986م، ص 14.

إلى يومنا هذا غير مقروءة<sup>22</sup>، وحتى في بعض الأحيان قراءة بعض الشواهد تخضع للرواية الموروثة و عمل المؤرخ هنا ليس سوى مقابلة الرواية الموروثة بالشاهدة القائمة. يقول ليوبولد فون رانكه: «علم التاريخ يبدأ بنقد التقليد». ويقول رينان: «جوهر النقد هو إدراك حالات مخالفة جدا لما نعرف من محيطنا العادي». وهنا يكون التقليد والتسليم بالأفكار المسبقة حاجز أمام إدراك الحالات غير العادية لابد أن يتجاوزه النقد التاريخي لينفتح على حالات غير معروفة<sup>23</sup>.

**5. نظرة المؤرخ للشواهد:** نعتبر التاريخ من حيث الجوهر هو معرفة بواسطة الوثائق لكن السرد التاريخي يتجاوز كل الوثائق ويضع نفسه فيما وراء الوثائق. ذلك أن أي وثيقة لا يمكن أن تكون بذاتها هي الحدث ولا يجعلك ترى الماضي نفسه مباشرة كما لو كنت هناك فالوثيقة ليست محاكاة للحدث بل هي حكاية عنه، ويصبح التاريخ هو رواية على لسان المؤرخ لا على لسان الشخصيات نفسها أثناء الفعل<sup>24</sup>. يشعر المؤرخ بأنه لا يعمل ويده مطلقة فنادرا ما يستطيع أن يقص قصة جزء من الماضي كما وقع حقيقة<sup>25</sup> لأننا إذا اعتبرنا أن الماضي شيء "قد وقع فعلا" هذا يقودنا إلى اعتماد نوع واضح من الشواهد ومحدد بالواقعة التاريخية التي يدرسها، هذا يحتم على المؤرخ التأكد من أن سجلاته تأتيه فعلا من الماضي و

---

22- يكفي أن نشير إلى بدايات بعض السور القرآنية مثلا "كهيعص" مازالت إلى يومنا هذا لا يوجد لها تفسير مقنع أو وصول إلى معانيها الحقيقية، بل بقيت في إطار تأويلات مختلفة.

23- عبد الله العروي: المرجع السابق، ص 104.

24- بول فين: أزمة المعرفة التاريخية فوكو وثورة في المنهج، تر: إبراهيم فتحي، ط1، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993م، ص 27.

25- نجد هذا المنهج عند رانكه في مقدمة كتابه تاريخ الأمم اللاتينية والجرمانية: «ولقد وضعت على عاتق التاريخ مهمة الحكم على الماضي وإفهام الحقائق لأهل الحاضر بما يعود بالخير على أهل الأجيال القادمة. و كتابي هذا لا يسمو إلى تحقيق هذه المطالب الرفيعة وكما يسعى إليه هو أن يعرض ما حدث فعلا بالضبط كما كان بالفعل». أنظر: حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984م، ص 79.

### الشواهد والكتابة التاريخية

أن واقعها هو ما تبديه و أن يكون خيال المؤرخ موجه نحو بعث الماضي لا خلقه من جديد وهذه ميزة التاريخ عن القصة الخيالية و الشعر وغيرها<sup>26</sup>. غير أن الشواهد تتحكم بصفة غالبية على الكتابة التاريخية.

إن البحث في التاريخ موجه دائما نحو الموضوع المعلوم محاطا دائما بمجهول، فيوضع في هذا الإطار العام البحث عن شواهد الماضي. للتاريخ مفهوم مزدوج فهو يعاكس باستمرار الاتجاه العادي في المجتمع، إصلاحي إذا عم الجمود ومحافظ إذا عم التغير. كما أن التاريخ في خطر، خطر الذوبان في التقليد فيصبح محفوظا غير مفهوم وخطر الذوبان في حاضر يتطلع باستمرار إلى مستقبل متجدد. كما أن المؤرخ المحترف يخشى إن هو توقف ليساءل نفسه سقط إما في أحبال الطبيعة رفقة الفيزيائيين وإما في متاهات الذات صحبة دعاة التأصيل فهو يعلم أن نطاق التاريخ محدود بالطبيعة من جانب وبالحقيقة من جانب آخر و أن المفهوم لا يتضح في الأفهام إلا بالمقارنة مع كل واحد منها<sup>27</sup>.

يسعى المؤرخ إلى الوصول إلى الحقيقة التي تميز التاريخ عن الذاكرة، بصيغة أخرى كيف ينجح في كتابته الأدبية في أن يتميز عن القصة الخيالية. المسألة عندها تصبح أن نعرف إن كان التمثيل التاريخي للماضي قد حل الاستعصاءات المتعلقة بتمثله الذاكري أو أنه فقط غير مكانها، فبين التمثيل الذاكري الذي يعرض نفسه بوصفه غرضا موضوعا أو بوصفه مرجعا لضرب من الخطاب التاريخي وبين التمثيل الأدبي الواقع في نهاية مسار عملية كتابة التاريخ، فهل من الممكن أن التمثيل -الموضوع الخاص بالمؤرخين- لا يحمل علامة اللغز الأولى للتمثيل الذاكري للماضي، ولا يستبق اللغز النهائي للتمثيل التاريخي

---

26- لويس جوتشلك: المرجع السابق، ص 64.

27- عبد الله العروي: المرجع السابق، ص 490.

للماضي<sup>28</sup>؟، وهنا لابد أن نطرح السؤال ما هو المقياس الذي تتبناه نظرة المؤرخ للشواهد؟ ما دام أن زمن التفكير الذي يمر به علم التاريخ يفرض رؤية تأويلية ليس فقط بالنسبة إلى مواضيع التاريخ ولكن أيضا بالنسبة إلى تطورات كتابته. الأمر الذي يستوجب على المؤرخ استحضار كل الأبعاد والمستويات التي تدخل في تركيبة الحياة الإنسانية ( بيولوجية، نفسية، مجالية، اقتصادية، اجتماعية سياسية...). مما يطرح الكثير من المشكلات أمام المؤرخ أثناء دراسته للتاريخ.

لا يمكن للمؤرخ المعاصر أن يكتفي بالمفاهيم التقليدية لأن التاريخ كما يفهم الآن مبني على مفاهيم الدولة و المجتمع و الطبقة، فواجب المؤرخ أن لا يتقيد بالأنماط التعليلية الجاهزة عليه أن يفككها و أن يحرر كل مفهوم من المضامين الجامدة المضمنة فيه، عليه أن يأخذ المفهوم وهو يتحمل التعيين ويستعمله بكيفية إشكالية لطرح المشكلات و لفتح طرق جديدة للبحث و التنقيب عن الوثائق لا يجب أن يقف عند حدود المفاهيم كمضامين جامدة وقارة، بل كمفاهيم مفتوحة و متغيرة بتغير الأنساق و الظروف التاريخية المدروسة، فلكل مفهوم تاريخه<sup>29</sup>.

## 6. الخاتمة:

مع انفتاح التاريخ على العلوم الأخرى، سواء الإنسانية منها أو الدقيقة، تمكن المؤرخون من التزود بأدوات بحث جديدة جعلتهم يعيدون النظر في كثير من الوقائع التاريخية المتعددة الشواهد، ويطرحون أسئلة جديدة ومشكلات تاريخية لم تكن إلى عهد قريب في متناول المشتغلين بالتاريخ. لقد نظر الثنائي لوسيان فيفر ومارك بلوك إلى الكتابة التاريخية على أنها طرح للمشكلات الكبرى للإنسان

28- جاك لوغوف: المرجع السابق، ص 287.

29- عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، ط4، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997م، ص 47.

## الشواهد والكتابة التاريخية

(Histoire-Problemes) في سياق الزمن التاريخي الطويل، وذلك بنية إخراج الكتابة التاريخية من نمطية الحدث السياسي والوقائع الضيقة.

بدأ المؤرخ يعتمد أسلوب التفكير العلمي القائم على التحليل الملموس للوقائع، ومساءلة الوثيقة التاريخية، ليس فقط عن ما تريد قوله، ولكن عما لا تريد البوح به، متوسلا بعدة منهجيات تتميز بالتنوع وتعدد المقاربات.

انتقال المؤرخ من مستوى المعرفة الجاهزة التي تقدمها الوثيقة الرسمية إلى مستوى أرقى يقوم على نقد كل ما هو جاهز ومعطى مسبق وهنا تكمن صعوبة مهمة المؤرخ لأن الشواهد لا تسير فكره وتضعه أمام إشكاليات تاريخية جديدة، تتطلب منه النبش في مصادر أخرى و كشف وثائق جديدة، ولهذا يقول المؤرخ الفرنسي لوسيان فيفر: "سيساهم في كتابة التاريخ اللغوي والأديب والجغرافي والقانوني والطبيب وعالم الأجناس والخبير بمنطق العلوم... الخ".

تبقى للشواهد التاريخية أثر كبير في توجيه الكتابة التاريخية مادام أن قراءتها متوقفة على طبيعة المؤرخ و عصره و حتى التيارات الفكرية التي ينتمي إليها. كما أن قراءة الشواهد تبقى صعبة على المؤرخ ما لم تتعدد مصادره معارفه كما لابد عليه من الاستعانة بالعلوم الأخرى المساعدة حتى تكون كتابته التاريخية أقرب إلى الحقيقة.